الفصل السادس

علم الاحترام(*)

من بين مؤلفات العقاد العديد من مجاميع تشتمل على مقالات تحمل آراءه في فلسفة الحياة والأدب، مثل: «الفصول»، و«مطالعات في الكتب والحياة»، و«مراجعات في الأدب والفنون»، و«ساعات بين الكتب»، و«بين الكتب والناس». وكان من بين ما أعجبني من مقالاته ومطالعاته مقال جاء في كتابه «مطالعات في الكتب والحياة» بعنوان «علم الاحترام»، هذا نصّه:

علم الاحترام(**)

نعم علم الاحترام. ولماذا لا يكون الاحترام علمًا؟؟ ألا يشتمل كما تشتمل العلوم كلها على مبادئ وأصول. وحقائق وفروض؟؟ ثم إن العلوم على تعددها تبحث في مقادير المواد والأشياء، وفي نسب بعضها إلى بعض، فإن تجاوزتها إلى الناس لم ترتق إلى الموازنة بينهم ووضع قيمة صحيحة لكل منهم. أما علم الاحترام الذي نريد أن نبتكره فيبحث في أقدار الناس وما يتفاضلون به من عروض الحياة ومحاسن الشيم. فهو أشرف العلوم موضوعًا وهو آخر ما يتلقاه الطالب منها. لأن الطالب يتلقى العلوم الأخرى في الكتب ويحضرها على الأساتذة، وهذا العلم لا كتاب له يحصر أبوابه وأقسامه و يضبط قواعده وأحكامه، ولا أستاذ يمليه على طالبه فيريحه من جمع متفرقه. و إنما هو مفرق بين أيدي الناس، الرفيع منهم والوضيع والمحنكين منهم والأغرار. ففي كل يد عجالة مبتورة. ومع كل خريج وصية ناقصة. وعلى الطالب الحريص

(*) مقال للأستاذ عباس محمود العقاد من كتابه: مطالعات في الكتب والحياة، دار المعارف، القاهرة، ط4 (1987م)، ط1، المكتبة التجارية (1924م).

(**) من مقالات الشذور.

على الاحترام أن يتتبع أجزاءه في مظانه، و يستعين عليه بأهله، فإنه إن لم يفعل لم يكن قصاراه أن يجهل ما يحترم به الناس بل جهل الناس ما يحترمونه به.

ولم أقصد بعلم الاحترام هذا الذي يصنعه بعضهم إذ تراه يتهيب و يوجل وهو داخل على من يحترمه كأنه يقتحم غابات أفريقية. أو ينتفض و يشد عرى قبائه كأنه يقابل ثلوج المنطقة القطبية. أو يهبط بيديه ثم يرفعها كأنه يحثو التراب على رأسه. أو يرخيهما على صدره كالكلب يعالج الوقوف على رجليه. فهذا علم شائع قد حفظه كثير من الناس وأتقنوه. وليس بين الرجل و بين أن يستبحر فيه إلا أن يحتقر نفسه فتنقاد له مبادئه وخواتيمه في أقل من قولك «ألف باء».

ولكني قصدت العلم الذي من عرفه فقد عرف الإنسان، ومن جهله فقد جهل كل شيء والذي لا يعلمه إلا القليل ولا يعمل به إلا الأقل من ذلك القليل.

رأيت رجلًا ذا قدم في هندسة البناء راسخة وشهرة في سائر فنون الرياضة ذائعة. وكنت أسمع أخاه يقول: لو كان أخي في أيام خوفو لما بنى الهرم الأكبر أحد سواه. ولو حضر بابل يوم اندك صرحها لما دكه الله! ولكني رأيته يطأطئ هامته إلى يد صعلوك يسيل مخاطه على سباله. ويجري لعابه على لحيته؛ فيقبلها ظهرًا لبطن ثم بطنًا لظهر.. فقلت هذا رجل يشيد الهياكل، إلا أنه يعبد الأصنام، و يعرف نسب الأعداد والأرقام ومقاييس الأجسام والأحجام، إلا أنه لا يعرف الطول من العرض ولا الخلف من القدام، في علم الاحترام.

وهذا نصيب مهندس كبير من هذا العلم فما ظنك بالجهلة، وماذا يبلغ أن يكون جهد السوقة السفلة؟؟

تقول لك آداب السلوك احترم من ينفعك، وتقول لك آداب الصدق احترم من ينفع الناس، والقصد بين المذهبين أن تحترم من لا يسعك احتقاره سواء في سرك أو في علانيتك. أما الناس فيحترمون من يخافون شره أكثر من احترامهم من يطلبون بره، وربما شاب احترامهم لأهل البر بعض الرياء وأما احترامهم للظلمة والطغاة فخالص لا شائبه للرياء فيه، بل هو احترام لو أكرهوا أنفسهم على تركه لما استطاعوا.

و يا رب فتى مبتدئ في هذا العلم يخرج من كنف أبيه أو أستاذه ويمضي على رأسه حائرًا

لا يعلم من يحترم ولا كيف يحترمه. ولا يعلم من يحتقر ولا كيف يحتقره. وتراه يغالي باحترامه ويضن به على من لم يكن أمة في رجل. وعالمًا مجتمعًا في واحد، ويمسك بميزانه وقد وضع في إحدى كفتيه صنجة النبوغ وصنجة الأخلاق وصنجة السمت وصنجة الرئاسة وصنجة الثروة وغيرها من الصنج التي يوزن بها الرجال، ويذهب بالكفة الأخرى عله يجد في الناس من يملؤها ويثقل فيها. فما هي إلا دورة أو دورتان في الطرق والبيوت والأسواق والمحافل حتى يئوب وقد رفع من كفته أكثر الصنج؛ لتخف بعض الشيء ويرتفع من يقابلها في الكفة الأخرى من الرجال. يرفعها واحدة بعد واحدة حتى لا تبقى في الكفة إلا صنجة أو اثنتان وهما في الغالب صنجة الرهبة وصنجة الطمع. ثم لا يمضي غير يسير حتى يصبح وهو لا يرجح في ميزانه إلا أخف الناس وزنًا في نفسه ولا يخف فيه إلا أرجح الناس وزنًا عنده، وحتى يكون بين ظاهره وباطنه في الاحترام أبعد مما بين الأرض والسماء.

لقد هالني هذا الأمر وخفت منه على آداب المبتدئين فعن لي أن أدعو لجنة من العلماء إلى وضع كتاب وافٍ صريح في علم الاحترام يعصم الناس من الخلط والخبط فيه ويحجزهم عما يتخلله من الدهان والملق... فاستقر رأيي على هذه الفكرة أيامًا ولكنني رجعت إلى نفسي فقلت: ومن يا ترى يشرح للناس مسائل هذا الكتاب؟؟ وأي أستاذ يرضي بأن يعلم الناس علمًا يحتقرونه به لو وزنوه حق وزنه؟؟ ألا يكون شأن الأساتذة في هذا الكتاب كشأن الفقيه المنافق في كتب الدين!! يلقن الناس منها ما يدر عليه الرزق ويوطئ له الأعناق ويعمى عنه العيون، ويتركهم من الدين القويم في جهل مقيم، وعن اليقين في ضلال مبين؟

فيئست من أن يكون للناس قسطاس صادق المعيار، أمين على الأقدار، ورأيت أن أفضل ما يصنع العلماء أن يشتغلوا بعلومهم التي انقطعوا لها وأن يدعوا كلًّا وما يهتدي إليه في علم الاحترام.